مجلة جامعة الرازي

للعلوم الإدارية والإنسانية

RUHMS

علمية محكمة تصدر عن مركز البحث العلمي، وكلية العلوم الإدارية والإنسانية – جامعة الرازي

Print ISSN: 2791-3287& Online ISSN: 2791-3295

جامعة الرازي

Al-Razi University

جامعة الرازي

كلية العلوم الإدارية والإنسانية

يونيو 2024م

المجلد الخامس

العدد التاسع

الهيئة الاستشارية

الرقم	الاسم	التخصص	الجامعة	الدولة
١	أ. د / عبدالله عبدالله السنفي	إدارة أعمال	جامعة صنعاء	اليمن
٢	أ. د / صالح حسن الحرير	إدارة أعمال	جامعة عدن	اليمن
٣	أ. د / طلعت اسعد عبد الحميد	إدارة أعمال	جامعة المنصورة	مصر
٤	أ. د / حسن عبد الوهاب حسن	إدارة أعمال	جامعة القران الكريم	السودان
٥	أ. د / نجاة محمد جمعان	إدارة أعمال	جامعة صنعاء	اليمن
٦	أ. د / احمد علي الحاج	تخطيط تربوي	جامعة صنعاء	اليمن
٧	أ. د / محمد احمد الجلال	طرائق التدريس	جامعة ذمار	اليمن

الإشـــراف العـــام

د / طـارق علي النهمي
رئيس مجلس الأمناء

رئيس التحرير

د / عبد الفتاح القرص
عميد كلية العلوم الإدارية والإنسانية

مدير التحرير

د / نجيب علي إسكندر
رئيس قسم الإدارة الصحية

هيئة التحرير

أ.د/ نـبـيـل الـربـيـعـي
د/ تركـــي يحيـــى القبانـــي
د/ عـبـد الـفـتـاح عـلـى الـقـرص
أ. د/ مـحـمـد مـحـمـد الـقـطـيـبـي
د/ مـحـمـد حسـيـنـي الـحسـيـنـي
أ. م. د/ صالـــح علي النهـــاري
د/ أحـمـد مـحـمـد الـحـجـوري

رقم الإيداع في دار الكتب الوطنية – صنعاء ( ) لسنة 2020م

مجلة جامعة الرازي – مجلة علمية محكمة – تهدف إلى إتاحة الفرصة للباحثين لنشر بحوثهم العلمية باللغتين العربية والإنجليزية في مختلف العلوم الإدارية والإنسانية

مجلة جامعة الرازي للعلوم الإدارية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تعنى بنشر البحوث في مجال العلوم الإدارية والإنسانية

تصدر عن مركز البحث العلمي، وكلية العلوم الإدارية والإنسانية – جامعة الرازي – اليمن

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:
مجلة جامعة الرازي للعلوم الإدارية والإنسانية

ص.ب:.....، الرمز البريدي..... اليمن

هاتف : ٢١٦٩٢٣ – ٧٧٤٤٤٠٠١٢

فاكس : ٤٠٦٧٦٠

البريد الإلكتروني: ruahms@alraziuni.edu.ye

صفحة الإنترنت: www.alraziuni.edu

مجلة جامعة الرازي للعلوم الإدارية والإنسانية، المجلد (٥)، العدد (٩)، صفحة من(٤٥) إلى (٦١)

القيم الأخلاقية السلبية للإنسان في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول

د.عبدالرحيم محمد عبدالله حسن الواصلي

قسم اللغة العربية–كلية الآداب– جامعة إب– اليمن

المستخلص:

يهدف البحث إلى الرصد والدراسة لأهم الأخلاقيات السلبية للإنسان في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول(٦٤٨-٧٨٤هـ) في كل من مصر وبلاد الشام، واعتمد البحث المنهج الاستقرائي في رصد مادة البحث وتتبع نصوصه مستعيناً بآلتي الوصف والتحليل، كما اقتضت طبيعة البحث أن يُقسّم على مقدمة ومحورين: أولهما: للبخل والحرص، وثانيهما: للّهو والمجون والعبث بالجواري والغلمان، وخلص البحث إلى أنّ الشعراء في العهد المملوكي الأول قد عبّروا بكل واقعية عن بعض الأخلاقيات السلبية في مجتمعاتهم، مثل آفة البخل والحرص، وبعض مظاهر اللهو والمجون والعبث بالجواري والغلمان، وغيرها، وقد عكس البحث معايشة الشاعر العربي لقضايا مجتمعه بصورة واقعية؛ إذ عبّر كثير من الشعراء عن حرصهم على تصحيح السلوكيات الخاطئة للمجتمع وتهذيب أخلاقه، فيما عبّر آخرون عن ميلهم إلى بعضها، لاسيما فيما يتصل باللهو والمجون، كما عكس البحث القدرة الفنية للشاعر العربي على إبراز تلك القيم وتصويرها بشكلٍ فني، يترجم حقيقة المجتمع، ويؤكّد إنسانية الشعر العربي.

كلمات مفتاحية: أخلاقيات، السلبية، شعر عربي، مملوكي

ABSTRACT :

The research aims to monitor and study the most important negative morals of man in Arabic poetry in the first Mamluk era (648-784 AH) in both Egypt and the Levant. The research adopted the inductive approach in monitoring the research material and tracking its texts using the description and analysis methods. The nature of the research also required that it be divided into an introduction and two axes: the first: for miserliness and greed, and the second: for amusement, promiscuity, and playing with maids and boys slaves. The research concluded that poets in the first Mamluk era realistically expressed some of the negative morals in their societies, such as the scourge of stinginess and greed, and some aspects of Amusement, promiscuity, playing with maids and boys, etc. The search for the Arab poet for issues has been realistic; Many poets expressed their keenness to correct the wrong behaviors of society and to prevent his ethics, while others expressed their tendency to each other, especially in connection with fun and Indecency , and reverse the technical capacity of the Arabian poet.

Keywords: ethics, negativity, Arabic poetry, Mamluk.

المقدمة:

القيم والفضائل الإيجابية تحتل أهمية كبيرة في حياة الإنسان، فهي تمثّل "الباب الأوسع لولوج صرح الإنسانية، والترقي المتدرج نحو عالم المثل"(١)، لكنّ الخالق سبحانه وتعالى جعل من سننه في الإنسان استعداده للخير والشر، وما يتسم به الإنسان من القيم الفضيلة والأخلاقيات الإيجابية الحميدة إنما هو استجابة لنزعة الخيرية، والتي تمثّل الأصل في إنسانيته وتحقيقاً لغاية وجوده، وكل ما يصدر عنه من السلوكيات الخاطئة والأخلاقيات السلبية السيئة إنما هو استجابة لنزعته الشريرة والتي تمثّل انتكاسة لإنسانيته وشروداً عن هدف وجوده كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ الشمس: الآيات: ٧ – ١٠ .

وقد اهتم الشاعر العربي– منذ زمن بعيد – بإبراز القيم التي تعلي من شأن الإنسان وتخلّده في الذاكرة الإنسانية من خلال المدح والافتخار بها، وفي المقابل حرص الشاعر العربي كذلك على ذم كل رذيلة أو خلق سيئ ينقص من قيمة الإنسان ويحطُّ من إنسانيته(٢)، من خلال شعر الهجاء والنقد الاجتماعي، وبرزت كذلك بعض الأخلاقيات السيئة من خلال ما صوّره بعض الشّعراء عن نوازعهم السيئة، وبعض أخلاقياتهم الفاسدة، وسيّر شعراء العهد المملوكي الأول في هذا النّهج إنما هو امتداد لما قبله من العصور غير أنّ الهجاء– وإن انخفض صوته في هذا العهد إلى حدٍ ما–قد دخل ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية الرحبة وأضحى مصدراً مهمّاً لاستطلاع القضايا والسلوكيات الاجتماعية العامة(٣) في المجتمع العربي، متخذاً في الغالب الفكاهة والسّخرية غطاءً لنقد السلوكيات الخاطئة والأخلاقيات الفاسدة المنتشرة في المجتمع(٤).

وقد يكون غياب الحاكم العربي، وتولي الحاكم المملوكي للسلطة–إذ لم تكن للمماليك قبائل معروفة أو أنساب محددة تجمعهم – قد أسهم إلى حدٍ ما في اختفاء القبيلة والنسب مدحاً وفخراً وليس هجاءً فحسب(٥)، فالناس كما قيل في العرف: على دين ملوكهم؛ لذلك نجد الشاعر العربي في هذا العهد يتوجه بنقده –في الغالب– إلى القيم السيئة

(١) آفاق الشّعر العربي في العصر المملوكي، ياسين الأيوبي، جرّوس برس، ط١، ١٩٩٥م، ص ٢٩٦–٢٩٧.

(٢) ينظر: الإيجابية والسلبية في الشّعر العربي بين الجاهلية والاسلام، علي شواخ ، دكتوراة، جامعة القديس يوسف– بيروت، ١٩٨١م، ص٧–٩.

(٣) ينظر: شعر الهجاء في العصر المملوكي (دراسة نقدية)، تغريد عباس السقا، ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزه، ٢٠١٢م، ص٣٩–٤٠، آفاق الشّعر العربي في العصر المملوكي، ص٢٣٨–٢٤٠.

(٤) ينظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٢م، ص٢٤٧–٢٤٩، الأدب في العصر المملوكي ٥٨/١.

(٥) ينظر: شعر الهجاء في العصر المملوكي، ص٣٩، السخرية في الشّعر في العصر المملوكي الأول(٦٤٨–٧٨٤هـ) ، نيفن محمد شاكر عمرو، ماجستير جامعة الخليل، ٢٠٠٩م، ص١٨–٥٢.

والسلوكيات الخاطئة والأخلاقيات الفاسدة في المجتمع بصورة عامة، وهو تطوّرٌ نقدي وبعدٌ إنساني ربما يكون جديداً في العصر العباسي ومطلع العهد المملوكي الأول أو غير شائع في الشِّعر العربي قبل ذلك.

وانطلاقاً من أهمية دراسة قضايا الإنسان في الشعر العربي لاسيما في العصر الوسيط الذي تقلّ فيه الدراسات والبحوث مقارنة بغيره من العصور السابقة أو اللاحقة؛ لذا كان نشر هذا البحث الذي هو استكمالاً لدراسة الأخلاقيات الإنسانية في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول؛ إذ قد سبقه بحث(قيد النشر)بعنوان القيم والأخلاقيات الإيجابية للإنسان في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول، والبحثان في الأصل يشكلان جزءاً من رسالة الماجستير للمؤلف، والمقدّمة إلى قسم الدراسات العربية بكلية الآداب جامعة إب، بعنوان الأبعاد الإنسانية في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول(٦٤٨-٧٨٤هـ) دراسة موضوعية فنية، وتمّ مناقشتها في شهر مارس ٢٠١٨م؛ بغية إيضاح الصورة الحقيقة المتكاملة للأخلاقيات الإنسانية للشعر العربي في هذه الحقبة.

ومما يزيد البحث أهمية أنّه لا توجد دراسة سابقة للموضوع في العهد المملوكي الأول، وقد تمّ الإشارة بالتفصيل في بحث الأخلاقيات الإيجابية إلى بعض الدراسات السابقة للقيم والأخلاقية الإنسانية في الشعر العربي في عصور أخرى أهمّها أطروحة دكتوراه بعنوان الإيجابية والسلبية في الشِّعر العربي بين الجاهلية والاسلام.

وسوف يعتمد البحث في رصد مادة البحث وتتبع نصوصه المنهج الاستقرائي متناولاً بالتحليل الموضوعي والفني أهمّ الأخلاقيات السلبية في الشعر العربي في العهد المملوكي الأول(٦٤٨-٧٨٤هـ)، في أهم حاضرتين عربيتين في تلك الآونة هما مصر وبلاد الشام.

فما هي نظرة الشاعر العربي في هذا العهد إلى تلك القيم والأخلاقيات السلبية؟ وما هي أهم تلك الأخلاقيات والقيم؟ وما موقف الشاعر العربي منها؟ ويمكن الإجابة على هذه التساؤلات من خلال دراسة أبرز ما شاع من الأخلاقيات والقيم السلبية في هذا العهد في محورين:

أولاً: محور البخل والحرص:

البخل من الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر سلبياً في تماسك المجتمع ووحدته، إذ يؤدي إمساك ذوي المال والغنى عن الإنفاق، وبخلهم بما في أيديهم إلى إثارت الحسد، والضغينة في قلوب المحرومين، وذوي الحاجة والفاقة، لاسيما في أيام الشدائد والمجاعات العامة، وربّما تتفاقم آثار البخل والحرص الشديدين فيؤديان إلى حدوث جرائم كبرى مثل السرقة والنهب، وربما اغتيال أرباب الأموال واختطافهم، ولعل ذلك أحد أسباب اهتمام شعراء العهد المملوكي الأول بهذه القضية، فقد اكتوى شعراء هذا العهد بنيران هذه الآفة، وشكوا كساد سوق مديحهم، وبخل أرباب المال والغنى وقسوة أهل الجاه والسلطان في زمانهم، لذا فقد صوّر الشّعراء خلق البخل والبخلاء بأبشع الصور وزجروا مَن اتصف به، تارة بأسلوب النصح والحكمة، وتارة أخرى بأسلوب الفكاهة والسخرية، فمن صور تناول آفة البخل والحرص بأسلوب الحكمة المنبثقة في الغالب عن تجارب إنسانية في الحياة قول أبي الحسين الجزار: من الطويل

إذا كان لي مالٌ على ما أصونُه؟ وما سـاد في الدنيا مَن البخلُ دينُه

ومن كان يوماً ذا يســـارٍ فإنه خـلـيـق لـعـمـري أن تجـود يمـيـنُـه[١]

يستنكر الشاعر في نصه ممن كان البخل خلقه، مؤكداً أنّ البخل لم يكن يوماً طريق السيادة في الدنيا، ويدعو ربّ المال إلى الإنفاق ويبرز فكرته مستعملاً أساليب فنية إقناعية منها: الاستفهام في قوله: (على ما أصونُه؟)، والقسم في قوله(لعمري).

ويقول الحمامي جاعلاً البخل من أعظم الرزايا والبلايا في الإنسان: من الكامل

إني لأكره في الأنـام ثلاثـة ما إن لها في عـدها من زائـد

قرب البخيل وجاهلاً متعاقلاً لا يسـتحي وتوداً من حاسـد

ومن الرزيـة والبليـة أن ترى هذي الثلاثة جُمِّعتْ في واحد[٢]

يصوّر الشاعر خلق البخل وصعوبة التعايش مع صاحبه فيجعله في صدارة الأخلاق السيئة في الإنسان، ويؤكد ذلك مستعملاً بعض الأساليب التركيبية كالتوكيد بإن واللام في قوله: (إني لأكره)، وتقديم الخبر في قوله: (ومن الرزية) على المبتدأ وهو المصدر المؤول في قوله: (أن ترى...).

وأما ابن الوردي فيضع فلسفته في المال، ويدعو فيها إلى التوسط في الإنفاق، مستعملاً أسلوب الطباق بين التبذير والبخل فيقول: من الرمل

وادّرعْ جداً وكداً واجتنبْ صحبةَ الحمقى وأربابِ البخلْ

بينَ تبـذيرٍ وبخـلٍ رتبـةً فكلا هـذينِ إنْ زادَ قتـلْ[٣]

ويقول كذلك في البخل: من الرمل

أيها الباخلُ فيما قد مَلَكْ أنتَ للمالِ وليسَ المالُ لكْ

فاحترسْ من حيَّةِ المالِ فلا بدَّ أنْ تقتلَها أو تقتُلكْ[٤]

---

(١) كتاب الغيث المسجم في شرح لامية العجم، الصفدي، المطبعة الأزهرية المصرية، ط١، ١٣٠٥هـ، ١/١٤٠، والشاعر هو أبو الحسين جمال الدين يحيى بن عبدالعظيم بن يحيى الأنصاري، المعروف بالجزار؛ لأنه كان يعمل بالجزارة، وهو من أشهر شعراء مصر في القرن السابع، وقد عرف في شعره بالظرافة والمجون، وتوفي سنة ٦٧٩هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة ديوان التحريض على حفظ أوزان القريض تصنيف أبي الحسين الجزار ت٦٧٩هـ، تحقيق محمود عبدالرحيم صالح وعبدالحليم حسين الهروط، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م٥، ع٣، تموز٢٠٠٩م، ص١٢-١٤، ولم أجد الشاهد في هذا الديوان.

(٢) الشاعر نصير الدين الحمامي حياته وشعره، رائد عبدالرحيم، مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية) مجلد ٢٧، ع٥، ٢٠١٣م، ص٩٦١، والشاعر هو نصير بن أحمد بن علي المناوي، واشتهر بالحمامي لأنه كان يعمل في اكتراء الحمامات، وهو شاعر مصري وتوفي سنة ٧٠٤هـ، ينظر: ترجمته في كتاب الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ت٧٦٤هـ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٢٧/٦٤، ومقدمة بحث الشاعر نصير الدين الحمامي حياته وشعره، ص٩٤٧.

(٣) ديوان ابن الوردي، تحقيق عبدالحميد هنداوى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٧٩، والشاعر هو زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر المعريّ بن الوردي شاعر وأديب مشهور توفي بحلب سنة٧٤٩هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة الديوان الشاعر، ص٧-١٢.

(٤) ديوان ابن الوردي، ص١٢٦.

في هذا النص يحذر الشاعر من عواقب البخل وأثره على صاحبه، ويستعمل أساليب بديعية وتصويرية؛ لإيضاح فكرته، منها طباق السلب في قوله: (أنتَ للمالِ وليسَ المالُ لكْ)، مبرزاً أثر البخل في استعباد صاحبه، وجعله خادماً للمال، يكدّ ويتعب لجمعه من دون أن يستفيد منه، بل ربّما تسبّب في قتله، فالمال إذا لم تنفقه أُهلكتَ بالبخل به، كالحيّة مع الإنسان إذا لم يتنبّه لها ويقتلها، عضّته وقتلته بسمّها.

وأمّا الحلي فيستغرب من أناس يُباهون بجاههم وأموالهم، ثم يبخلون عن انتفاع الناس بهما، في حين تجده يجود بعرضه وكرامته، ويبرز ذلك مستعملاً أسلوب المقابلة البديعية فيقول: من الكامل

إنّي لَأعجَبُ مِن تَعَقُّلِ جاهِلٍ ... أَمسى يَدُلُّ بجاهِهِ وبوَفرِهِ

أَمسى يَشحُّ بمالِهِ وبزادِهِ ... لكن يَجودُ بعَرضِهِ وبذِكرِهِ

وَتَراهُ يَحسُبُ ما بَقي مِن مالِهِ؛ ... فَتُراهُ يَعلَمُ ما بَقي مِن عُمرِهِ؟(١)

كما استخدم الشّعراء في تصوير صاحب البخل والحرص الأسلوب الفكاهي الساخر، من ذلك قول أبي الحسين الجزار ساخراً من رجل بخيل: من الخفيف

طالما كنتَ قبلها تحفظ الخُبـ ... ـزَ ولكن بالبخل في الصندوقِ(٢)

يمدح الشاعر البخيل بصفة الحفظ للخبز، ولكنّه مدح على سبيل السخرية والتهكم والذم، فهو قد حفظ الخبز، ولكن بحفظ المال وكنزه في الصندوق، وعدم إنفاقه في شراء الخبز والطعام.

وأمّا الشاب الظريف فيصور البخيل متهكماً به فيقول: من المنسرح

يَا جَامِعَ المالِ وَهْوَ يَمْنَعُهُ ... عَنْ راغبٍ في نَوَالِهِ طَامِعْ

أصْبَحْتَ في البُخْلِ إذْ عُرِفْتَ به بِهِ ... كَأَنَّكَ (الحَدُّ جامِعٌ مَانِعْ)(٣)

يشبّه الشاعر البخيل في جمع المال ومنع إنفاقه بمصطلح علمي وهو الحدُّ أي: التعريف الذي يعني الجامع المانع، ومما زاد من جمال الصورة في النص انتقاء الشاعر كلمات متجانسة مثل: (جامع، طامع، مانع) أكسبت النص نغماً موسيقياً مؤثّراً، فضلاً عن دلالتها المعنوية التي زادت فكرته إيضاحاً.

ويصف السراج الوراق البخيل بالبحر، لكن في ملوحته فيقول: من الطويل

هو البحر حتى الملح لم ينتفع به ... فلُجته الحرمان واللؤم ساحلُه

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، ص٦٦٩، والشاعر هو أبوالمحاسن عبدالعزيز بن سرايا بن نصر الطائي شاعر عراقي تنقل بين الشام ومصر ومات في بغداد سنة ٧٥٢هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة الديوان، ص٥-٧.

(٢) فوات الوفيات والذيل عليها، محمد بن شاكر ت٧٦٤هـ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، ١٩٧٣-١٩٧٤م، ٢٩١/٤.

(٣) ديوان الشاب الظريف، تحقيق شاكر هادي شَكر،مكتبة النهضة العربية، وعالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م، ص١٥١، والشاعر هو شمس الدين بن عفيف الدين سليمان التلمساني، وقد غلب عليه لقب الشاب الظريف، ولد في مصر وتوفي وهو شاب في دمشق سنة ٦٨٨هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة الديوان، ص٥-١٦، (الحدّ عند الأدباء هو: المعرّف الجامع المانع) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن صابر الفاروقي الحنفي التهانوي ت بعد ١١٥٨هـ، تحقيق علي دحروج،و نقل النص الفارسي إلى العربية عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٦٢٤/١.

ولو جاءه الغصَّان يسأل قطرةً بِهِ لضنَّ بها فليتقِ الله سائلُه(١)

اعتاد الشعراء على تشبيه الكريم والجواد بالبحر، لكنّ السراج الوراق يخالف ذلك فيشبّه البخيل- في كثرة ماله وعدم انتفاع المحتاجين منه، حتى في أبسط حاجاتهم وهو الملح- بالبحر في كثرة مائه المالح، وعدم قدرة العطشان على الانتفاع بقطرة من مائه؛ لشدة ملوحته، والشاعر في بناء هذه الصورة يتناص مع فكرة سابقة لشعراء سابقين وظّفوها في سياق المدح، ولكنّه يوظفها في سياق جديد؛ إذ ينقلها من سياق المدح إلى سياق الذم والسخرية كقول أبي بكر الشبلي ت٣٣٤هـ(٢): من الطويل

ولو لم يكن في كفه غيرُ رُوحِهِ لجـاد بهـا فليتقِّ اللهَ سـائلـهُ

هو البحر من أيّ النواحي أتيتَهُ فلُجّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلُهُ(٣)

ويقول البوصيري مستخدماً الحبك القصصي، ويجري نقده الاجتماعي الساخر لآفة البخل من خلال الحوار الذي يجريه على لسان بغلة شيخ طغى البخل على سائر عيوبه:من الخفيف

إنْ جَهِلْتُمْ ما حَلَّ في ساحلِ الشيـ ـخِ مِنَ الصّفحِ فاسْألُوا البَحَّارَهْ

قَـالـتِ: البَغْلَـةُ التي أَوْقَعَتْـهُ أَنـا مـا لي على الغُبونِ مَرَارَهْ

قلـتُ: مـا تَكْرَهِينَ منـه فقـالـت: أَيُّ بُخْـلٍ فيـه وأَيّ قَـتَـارَهْ

أنـا في البيْـتِ أَشْـتَهِي كَفَّ تِبْنٍ وَمِنَ الفُرْطِ أَشْـتَهِي نُوَّارَهْ(٤)

ويصوّر الحلي رجلاً بخيلاً، فيقول: من السريع

لا يَعرِفُ الحَمّـامَ لَكِنَّـهُ في البَيتِ يَحمي الماءَ في الشَمسِ

إِذا رَأى في قِـدرِهِ لَحـمَـةً تَلا عَليهـا آيَـةَ الكُرسـي

وَإِن رَأى في بَـيـتِـهِ فـارَةً بـادَرَهـا بِـالسَـيفِ وَالتُرسِ

يُجِـلَّ أَن تُـدرِكَ رُغفـانَـهُ حَواسُ مَن يَـأتيـهِ بِـالخَمسِ

بِالسَمعِ وَالأَبصارِ وَالشَمِّ قَد تُـدرَكُ دونَ الـذَوقِ وَاللَمسِ(٥)

(١) سراج الدين الوراق حياته وشعره، ميسر حميد سعيد، ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، ص١٤٤، والشاعر هو أبو حفص سراج الدين عمر بن محمد بن الحسن، واشتهر بسراج الدين الوراق نسبة إلى حرفته الوراقة، وهو شاعر وأديب مصري عرف بشعره الفكاهي، توفي سنة٦٩٥هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة المصدر السابق، ص٢٩-٥٥.

(٢) تناص الشاعر مع شعراء آخرين لاسيما في البيت الثاني لعلّ أقدمهم زهير ابن أبي سلمى- فيما اقتصرنا على بيتي الشبلي لأن الوراق تناص معه في فكرة البيتين معا- ينظر: ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرحه علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٩٢.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ت٥٧١هـ، تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ٦٠/٦٦.

(٤) ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيّد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٧٣م، ص ١٣١-١٣٢، والشاعر هو أبو عبدالله شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري مغربي الأصل شاعر وأديب اشتهر بالمديح النبوي وتوفي بمصر سنة ٦٩٦هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة ديوانه، ص٥-١٦.

(٥) ديوان صفي الدين الحلي، ص٦٢٥.

يتناول الشاعر في نصّه مظاهر الشّح في رجل شديد البخل، يبخل على نفسه، فضلاً على غيره، ويصوّرها بأسلوبٍ ساخر، يعكس قبح آفة البخل، ولؤم صاحبها.

وهكذا يُجمع شعراء العهد المملوكي الأول- فيما سبق من النصوص الشعرية- على ذمِّ البخل والحرص، وذمّ مَن يتخلق بهما من الناس، فهما من أقبح الصفات الإنسانية، وآثارها كارثية على الإنسان البخيل أولاً، فقد يودي به بخله وحرصه على المال إلى فقدان روحه وراحته، ودنياه وآخرته، فضلاً عن عرضه وكرامته.

كما دعا الشِّعراء إلى ضرورة إدراك حقيقة المال وفلسفة التعامل معه بلا تبذير ولا تقتير وهي فلسفة مستقاة من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ الفرقان:الآية:٦٧، كما جسّد الشِّعراء كثيراً من صور البخل والحرص بأسلوب فكاهي ساخر، يبعث على ازدراء هذه الآفة الاجتماعية ومن يتخلَّق بها، كما يؤكد اهتمام الشِّعراء بتصوير مثل هذه الآفات الاجتماعية التي كانت تشكل ظاهرة بارزة في العهد المملوكي الأول، علاوة على تأكيد قدرة الشاعر العربي في تصوير الواقع الإنساني ونقده لأخلاقيات مجتمعه بأسلوب فني وجمالي رائع.

ثانياً: محور اللهو والمجون والعبث بالجواري والغلمان:

لعل من أهمّ ما يميّز الحياة الاجتماعية في العهد المملوكي هو التوسع في مجالس اللهو والمجون، التي "يُعاقر فيها الخمر مجاهرة في أماكن مخصصة معلومة...ولا تكتمل بكأس الشراب، بل لا بدّ من ساقٍ ليِّن القوام، ومغنية تصدع بصوت غنجٍ ريّان ليتمايل السكارى على أنغام الآلات الموسيقية...ليصلوا إلى المراد في الهروب من الواقع المرير، الذي أسقم أنفسهم وعقولهم"(١)، ولم تكن هذه المجالس بدعة عهد المماليك، لكن بتوليهم السلطة، عملوا على الاستكثار من الغلمان والجواري والجنس الاجنبي لأغراض مختلفة، كإرضاء النزوات الخاصة لكثير من سلاطينهم، والعمل على إلهاء الشعب عن مطالبه السياسية والاقتصادية، فضلاً عن فرض الضرائب على دور اللهو والمجون واتخاذها مورداً اقتصادياً لدى بعض السلاطين(٢) فيما نجد سلاطين آخرين قاموا بمنع ذلك كالسلطان بيبرس(٣) وغيره.

وأمّا موقف الشاعر العربي إزاء مثل هذه المجالس وما يحدث فيها، فقد عبّر عنه في شعره على شكلين: أحدهما مشجع لها ومشارك لمجتمعه فيها، والآخر منتقد لها ومجرّماً لما يحدث فيها.

---

(١) المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن دانيال الموصليّ الكحّال، تغريد وضاح مصطفى كوني، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية-نابلس، ٢٠١٣م، ص٩٧.

(٢) ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي العبيدي، تقي الدين المقريزي ت ٨٤٥هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٣٤٦/٧-٣٤٧، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص٢٤٧-٢٥٠، السخرية في الشِّعر في العصر المملوكي الأول، ص٤٩-٥٣.

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٣٠هـ، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ج١/ ق١/٣٢٧.

أ- الشكل الأول: نجد الشّعراء في هذا الشكل يعبّرون عن ولعهم وحبهم لتلك المجالس وما فيها من عناصر المتعة والشهوات، كالخمر والحشيش، والغواني والغلمان الحسان، والرقص والغناء، ومنه وصف بدر الدين ابن لؤلؤ الذهبي لمجلس شربٍ غاب فيه الرقيب والواشي واللائم فيقول: من البسيط

ومجلس راق من واشٍ يكدّره ... ومن رقيب له في اللوم إلمامُ

مافيه ساع سوى الساقي وليس بِهِ ... بين النّدامى سوى الرّيحان نمّامُ(١)

يشير الشاعر في نصه إلى عناصر المتعة في مجلس لهوه، فيجعل في مقدّمتها غياب الرقيب والواشي، وفي ذلك إشارة إلى مدى الظلم السياسي لسلطة المماليك وفرض رقابتهم على مجالس الناس حتى أصبح غياب وشاتهم عن المجالس تبعث على الاستمتاع بها، ويؤكّد الشاعر خلو مجلسه من الرقباء والوشاة الذين ينقلون أخبار مجلسه، من خلال الصورة الفنية التي رسمها في البيت الثاني بقوله: (سوى الرّيحان نمّامُ)، فلا نمّام في مجلسه سوى ورد الريحان الذي تتناقل رائحته الطيبة بين أفراد مجلسه.

ويصوّر السراج الوراق مجلساً فيقول: من الرجز

ومجلسٍ للشُّرب فيه قينةٌ ... تُحْييهمُ شدواً كما تُهلكهمْ

لو رأها الهدهد قال قوله: ... إني وجدت امرأةً تملكهمْ(٢)

يرسم الشاعر صورة فنية لمجلس لهوٍ فيه طرب وغناء ورقص وشراب، ويصوّر حال أصحابه في تفاعلهم وتمايلهم، وتأثّرهم بصوت قينته وجمالها، ويشبّه تملكها لذلك المجلس بتملّك بلقيس لأهل سبأ، مستمداً هذه الصورة من القصص القرآني، متناصاً مع قصة هدهد سليمان عليه السلام، حين رأى الملكة بلقيس ووصف ملكها، مقتبساً حرفياً قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ النمل: الآية: ٢٣، ويبرز المعنى من خلال المطابقة بين كلمتي: (تحيي وتهلك) في قوله: (تُحْييهمُ شدواً كما تُهلكهمْ) فهي تحييهم بصوتها، وتهلكهم بجمالها الساحر.

ويقول ابن دانيال الموصلي: من مجزوء الرجز

ماتَ يا قومُ فجأةً إبليسُ ... وَخَلا منهُ رَبعُه المأنوسُ

هَوَ لَوْ لَمْ يَكُنْ كما قلتُ مَيْتاً ... لم يُغَيّرْ لُحكمِه ناموسُ

أينَ عيناهُ تنظُرُ الخمرَ إذ عُطّلَ ... منهُ الرَّاووقُ والمجريسُ

والبواطي بها تَكَسّرْنَ والخمّا ... رُ مِن بَعْدِ كَسْرِها محبوسُ

وذَووالقَصفِ ذاهلونَ وقد كا ... دَتْ على سَلها تسيلُ النّفوسُ

---

(١) شعر بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ت٦٨٠هـ دراسة موضوعيّة وفنيّة، أسماء عبداللطيف عبدالفتاح حمد، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية فلسطين، ٢٠١٢م ، ص٢٣٤، والشاعر هو بدر الدين يوسف بن لؤلؤ بن عبدالله الذهبي الدمشقي، أبو المحاسن شاعر شامي من أصل مملوكي ولد بحلب وتوفي بدمشق سنة٦٨٠هـ، ينظر ترجمته في مقدمة الدراسة السابقة، ص٥-٢٤.

(٢) سراج الدين الوراق حياته وشعره، ص٢٢٨.

كم خَليعٍ يقولُ ذا اليومُ يومٌ مِثلَما قيلَ قمطريرٌ عبوسُ[١]

في هذا النص يرثي ابن دانيال عهد الخلاعة والمجون وأماكن اللهو والفجور، حين منعها أحد سلاطين المماليك وهو الظاهر بيبرس البندقداري ت٦٧٦هـ في مصر[٢]، ويبرز أثر اختفاء دور اللهو والمجون في ذلك العهد، مستعملاً عناصر تصويرية وفنية منها الصورة الكنائية اللافتة في قوله:(ماتَ يا قومُ فجأةً إبليس) والتناص القرآني في البيت الأخير مع قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ الإنسان: الآية: ١٠.

ويعبّر ابن الوكيل عن موقفه من الخمرة فيقول: من البسيط

ليـذهبوا فِي ملامي أَيَّـة ذَهَبُوا فِي الْخمر لَا فضَّـــة تبقى وَلَا ذهبُ
وَالْمَالُ أجمل وَجه فِي تصـــرُّفه وَجـه جميـل وَرَاح فِي الـدجـا لَهَـبُ
لَا تـأســـفن على مَـال تمزقـه أَيـدي ســـقـاة الطلا والخُرَّدُ الْعَرَبُ
رَاحٌ بهَا راحتي فِي راحتي حصلت فتمَّ عُجبِي بهَا وازداد لي الْعَجَبُ[٣]

يعبّر الشاعر في النص السابق عن عدم مبالاته بمن يلومه في مجالس الخمر والقيان، داعياً إلى عدم التحسُّر على ما ينفق فيها من المال، ويستعمل لإبراز تلك المعاني التصوير في قوله:(وَرَاح فِي الدجا لَهَبُ)، وبعض عناصر البديع، كالمجانسة بين كلمتي: (راحتي) الأولى: أي ارتياحي، و(راحتي) الثانية: أي باطن كفي، وبين كلمتي: (عُجبي) :أي زهوي[٤]، و(العَجَب) :أي الاندهاش؛ إذ وجدها فوق ما كان يتوقعها.

ويقول صفي الدين الحلي: من الطويل

وَلَيلَةَ عـاطـاني المِدامَ وَوَجهُـهُ يُرينا صَـبوحَ الشُـربِ حالَ غَبوقِهِ
بِكَأسٍ حَكاها ثَغرُهُ في اِبتِسامَةٍ بِمـا ضَـــمَّـــهُ مِن دُرِّهِ وَعَقيقِـهِ
لَقَد نِلتُ إِذ نادَمتُهُ مِن حَديثِهِ مِنَ السُـــكرِ ما لا نُلتُهُ مِن عَقيقِهِ
فَلَم أَدرِ مَن أَيَّ الثَلاثَةِ سَكرَتي أَمِن لَحظِهِ أَم لَفظِهِ أَم رَحيقِهِ؟[٥]

يعبِّر الحلي عن تأثير عناصر اللهو والمجون في عقله وقلبه، وشغفه بها، ويصوّر ذلك بأسلوبٍ جمالي لافت، من خلال حشد مجموعة من العناصر الفنّية، كالتصوير في قوله: (ووجهُهُ يُرينا صَبوحَ الشُربِ) مصوراً جمال وجه غلامه، وفي

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١/ق١/٣٢٧-٣٢٨، والشاعر هو شمس الدين مُحَمَّد بن دانيال بن يُوسُف الْخَرَاعِيّ الْموصِلِي، وعرف بالكحّال لأنه كان يعمل ببيع الكحل، وهو أحد شعراء مصر وأدبائها له ديوان شعر، توفي سنة٧١٠هـ، ينظر: ترجمته في كتاب الوافي بالوفيات، ٤٣/٣.

(٢) ينظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١/ق١/٣٢٧-٣٢٨.

(٣) شعر صدر الدين ابن الوكيل، ت٧١٦هـ، جمع وتحقيق ودراسة عمر علي عيسى دودين، ماجستير، جامعة الخليل، ٢٠١٢م، ص١٣٥-١٣٦، والشاعر هو أبو عبدالله صدر الدين محمد بن عمر بن مكي بن عطية القرشي، واشتهر بابن المرحل في مصر وبابن الوكيل وبابن الخطيب في الشام، ولد في مصر وتوفي فيها سنة٧١٦هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة الديوان، ص٣-١٨.

(٤)ينظر: لسان العرب، لابن منظور ت٧١١هـ، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف ، القاهرة، ص٢٨١٢.

(٥)ديوان صفي الدين الحلي، ص٣٩٥.

قوله:(بِكَأسٍ حَكاها ثَغرُهُ في اِبتِسامَةٍ) مصوراً أثر ابتسامته التي جعلته كالسكران، وفي قوله:(مِن دُرِّهِ وَعَقيقِهِ) مصوراً جمال ثناياه وبياضها، وفي قوله: (ما لا نُلتُهُ مِن عَقيقِهِ) مصوراً أثر حديثه، ثمّ يختم نصّه بتعبيره عن سكره التام بمحبوبه الذي امتلك كل عناصر الجمال في شكله، وحديثه، ومدامه، وهو تصوير يعكس مدى تعلّق الشاعر بعناصر اللهو والمجون، وشغفه بها.

فيما تقدّم من شواهد اللهو والمجون نجد بعض الشّعراء يعبّرون عن واحدة من أكثر مظاهر الحياة الاجتماعية السلبية انتشاراً، وانتكاساً للفطرة الإنسانية في العهد المملوكي الأول وهي مجالس اللهو والمجون، إذ عبّروا عنها بما يؤكد مشاركتهم الفاعلة فيها، وتعلّقهم بعناصر المتعة والشهوات لا سيما شرب الخمر، وفي ذلك تصوير دقيق وواقعي لحياة الشاعر ومجتمعه بكل ما فيها من جوانب سلبية، وأخلاقيات فاسدة سادة في ذلك العهد.

كما صوّر الشّعراء ظاهرة انتشار الغلمان المرد كأحد عناصر لهوهم ومجونهم، فتغزلوا بهم، وربمّا كان كثير من ذلك يندرج في إطار العفة وحسن النوايا، ومجاراة العصر وتسويق الشّعر، لكن ذلك لا ينفي وجود الرغبة الجنسية عند بعض الشّعراء في تغزلهم بالغلمان وميلهم نحو بعض الأخلاقيات الفاسدة،كالشذوذ الجنسي؛ إذ تشي بعض الشواهد بذلك كقول ابن دانيال : من السريع

ما عايَنَتْ عَيناي في عُطلتي أقـلّ مِـن حَـظّي ومـن بختي
قَد بِعتُ عَبدي وَحِماري وَقَدْ أَصـبحتُ لا فوقي ولا تحتي(١)

فالشاعر يشكو افتقاد عبده وحماره، ويذكر في نهاية البيت الثاني ما يشي إلى ميله للشذوب الجنسي، وهو المقابلة في قوله: (لا فوقي) أي: فقدان متعته (عبده)، وقوله: (ولا تحتي) أي فقدان مركبه(حماره).

وأمّا السراج الوراق فيقول مفضّلا الغلام الأمرد على الفتاة: من الوافر

أتجعل مَن تَطَمَّثُ كلّ شـهرٍ وتنتجُ طفلـةً في كـلِّ عـامِ
كأمرد واضـــح الخدين حلوٍ يزينُـك في البعوث وفي المقـامِ
تُكلِّمه بما تَهوى جهاراً حَديثِهِ بلا عـذلٍ عليـك ولا ملامِ(٢)

ومما يؤكد ميل بعض الشّعراء إلى الشذوذ الجنسي قصة وقعت للسراج الوراق وصديقه الجزار الذي كان يشاركه ذلك الميل إذ عبّر الشاعران عن خيبة أملهما، وقد أسدل الليل أستاره، ولم يحصلا على مرادهما من غلامين أحدهما راهب والآخر زامر، فقال السراج: من السريع

في فخنا لم يقع الطائرُ لا راهبُ الدَّير ولا الزامرُ

فقال الجزار:

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب، الشيخ تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي ت٨٣٧هـ، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ١/١٥٠.

(٢) سراج الدين الوراق حياته وشعره، ص١٢٩.

فسعدنا ليس له أوّلُ ونحسنا ليس له آخرُ

فقال السراج:

فالقلب في إثرهما هائمٌ

وأكمل الجزار:

والقلب من أجلهما حائرُ(١)

ومن صور العبث بالغلمان قول الصفدي في غلام استجاب له: من الكامل

أهوى بمرشـــفه إلي وقال ها ويلاه من رشـــأ أطاع وقالها

فرشفت من رشفاته معسولها وضـــممت من أعطافه عســـالها

وظفرت في اليقظات منه بخلوة ما كنت آمل في المنام خيالها(٢)

يتضح مما سبق من شواهد التغزل بالغلمان مدى تفشّي آفة الشذوذ الجنسي في العهد المملوكي الأول(٣)، فقد وصل الأمر إلى تفضيل الغلام على الفتاة، وهي صورة تعبّر عن الانحطاط والتفسخ الأخلاقي، وانتكاسة الفطرة الإنسانية؛ إذ إنّ مثل هذه الانحرافات تأباها الحيوانات فكيف بالإنسان المخلوق العاقل؟

ب– الشكل الثاني: هو نقد هذه المفاسد، وتذكير المجتمع بآثارها الكارثية في الدنيا والآخرة، وهو من الأشكال التي اتخذها شعراء العهد المملوكي الأول في تصوير المفاسد الأخلاقية، متخذين في ذلك أساليب النصح والتخويف بعواقبها تارة، وتارة بالهجاء والسخرية من مرتكبيها، فمن النصح والتخويف بالعواقب قول البهاء زهير: من الطويل

أَيا مَعشَرَ الأَصحابِ ما لي أَراكُمُ عَلى مَذهَبٍ وَاللَهِ غَيرِ حَميدِ

فَهَل أَنتُمُ مِن قَومِ لوطٍ بَقِيَّةٌ فَما مِنكُمُ مِن فِعلِهِ بِرَشيدِ

فَإِن لَم تَكونوا قَومَ لوطٍ بِعَينِهِم فَما قَومُ لوطٍ مِنكُمُ بِبَعيدِ(٤)

ينتقد الشاعر مرتكبي جريمة اللواط ويخوّفهم عذاب الله الذي حلّ بقوم لوط، ويتناص مع بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ هود: الآية: ١١٦، وبعض الآيات الواردة في قصة لوط

(١) سراج الدين الوراق حياته وشعره، ص١٢٩–١٣٠.

(٢) لوعة الشاكي ودمعة الباكي، صلاح الدين الصفدي ت٧٦٤هـ، ضبط وشرح الشيخ محمد أبوالفضل محمد هارون، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٩٢٢م، ص٢٧.

(٣) المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن دانيال الموصليّ الكحّال، ص١٠٧–١١٣.

(٤) ديوان البهاء زهير، شرح وتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د ت، ص٧٠، والشاعر هو أبوالفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبي الأزدي، حجازي الأصل والمولد وأقام وعاش بمصر حتى توفي فيها سنة ٦٥٦هـ، ينظر ترجمته في مقدمة الديوان ص٨–١٠.

منها قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ هود: الآية: ٧٨، وقوله تعالى:﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ هود: الآية: ٨٩.

وهذا مجير الدين ابن تميم يقول مصوّراً العواقب المادية للمحرمات :من البسيط

لما عذلتُ خليلي في المدام وفي فعلِ الحرام فما أصغى وما ازدجرا

علمتُ حين أراني سمعهُ رجبا إنَّ المحرّم يُبقي بعده صفرا(١)

ويقول ابن النقيب الفقيسي: من الطويل

نهيناه عن فعل القبيح فما انتهى ولا ردّه ردع وعاد وعادى

وقلنا له دن بالصّلاح فقلّما رأينا فتى عانى الفساد فسادا(٢)

يحذر الشاعر من عواقب فعل القبيح، ويدعو إلى الالتزام والصلاح، مشيراً إلى أنّ الصلاح طريق السيادة، وأنّ الفساد طريق الانتكاسة، ويستعمل في بناء تلك المدلولات عناصر فنية أبرزها: فن الجناس في قوله:(عاد وعادى) الأولى من العودة، والثانية من المعاداة، وفي قوله:(الفساد فسادا) الأولى من فعل القبيح، والثانية من السيادة والرفعة، فأكسب الجناس النص دلالة صوتية لافتة، ونغماً موسيقياً مؤثّراً، فضلاً عن تأكيد فكرة النص بالدلالة المعنوية المختلفة للكلمات المتجانسة.

ويوجه ابن الوردي انتقاداً لاذعاً لمرتكبي جريمة الشذوذ الجنسي(اللواط) فيقول: من البسيط

مَنْ قالَ بالمردِ فاحذر أنْ تصاحبَهُ فإنْ فعلْتَ فثقْ بالعارِ والنارِ

بضاعةٌ ما اشتراها غيرُ بائعها بئسَ البضاعةُ والمبتاعُ والشاري

يا قومُ صارَ اللواطُ اليومَ مشتهراً وشائعاً ذائعاً مِنْ غيرِ إنكارِ

ذنبٌ بهِ هلكتْ منْ قبلنا أممٌ والعرشُ يهتزُّ منْهُ هزَّ إكبارِ

جناتُ عدنٍ على اللّوطيِّ قد حرمَتْ اللهُ أكبرُ ما أعصاهُ للباري(٣)

ينتقد ابن الوردي مَن يشجع بضاعة اللهو بالغلمان، ويحذر من عواقب جريمة اللواط، وكيف أصبحت ظاهرة مشهورة في مجتمعه، ويخوّف من خطرها في الدنيا والآخرة، ويظهر فكرته مستخدماً مجموعة من الأساليب الفنية التي تجذب ذهن المتلقي، وتؤثّر في نفسه، كأسلوب الجناس بين كلمتي: (العارِ والنارِ)، وبين كلمتي: (شائعاً ذائعاً)، وبين كلمتي:

(١) ديوان مجير الدين ابن تميم ت٦٨٤هـ نظرات ومستدرك، عباس هاني الجراخ، ط١، ٢٠٠٩م، ص٤٩، والشاعر هو مجير الدين محمد بن يعقوب بن علي، شاعر دمشقي وأحد أمراء الجند عاش في حماة وتوفي سنة ٦٨٤هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة ديوانه، ص٦.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبوالمحاسن، جمال الدين ت٨٧٤هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، دط، دت، ٣٧٦/٧، والشاعر هوالحسن ابن شاور بن طرخان بن الحسن، ناصر الدين بن النقيب الكناني، المعروف بالفقيسي، أحد شعراء مصر وله ديوان شعر، توفي سنة٦٨٧هـ، ينظر: ترجمته في فوات الوفيات والذيل عليها، ٣٢٤/١.

(٣) ديوان ابن الوردي، ص١٨٠.

(إنكار وإكبار)، وأسلوب الطباق بين كلمتي: (اشتراها وبائعها)، وأسلوب التناص الإشاري مع ما ورد في القرآن من عقوبة قوم لوط على فعلهم، كقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود: الآيتين: ٨٢ – ٨٣، ومع ما ورد في السنة الشريفة من وصف فعل اللواط بأنه من الذنوب التي تهلك صاحبها في الدنيا، مثل حديث(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)(١)، وتوجب عليه لعنة الله، وتورده نار الآخرة مثل حديث(ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط) (٢).

ويقول كذلك في لاميته ناصحاً ومحذراً الإنسان من مظاهر الحياة الفاسدة التي كان لها رواجاً في مجتمعه، مستعملاً أسلوب الأمر الذي خرج عن مقتضى الظاهر إلى النصح والإرشاد فيقول: من الرمل

اعتزلْ ذكرَ الأغـاني والغزلْ وقـلِ الفصـــلَ وجـانـبْ مَنْ هزلْ
واتركِ الغـادةَ لا تحفـلْ بهـا تُمْـسِ في عـزٍّ وتُـرْفَـعْ وتُجَـلْ
والـهَ عنْ آلـةِ لهوٍ أطربَـتْ وعـنِ الأمـرِ مـرتـجٍّ الـكـفـلْ
وافتكرْ في منتهى حسنِ الذي أنـتَ تهـواهُ تجـدْ أمـراً جـلَـلْ
واهجرِ الخمرةَ إنْ كنـتَ فتىً كيفَ يسـعى في جنونٍ مَنْ عقلْ؟(٣)

لعلّ ابن الوردي في هذا النص قد لخص أهم المفاسد الأخلاقية التي شاعت في مجتمعه، من حياة اللهو والمجون التي غالباً ما كان يشوبها مفاسد كثيرة كشرب الخمر، وارتكاب الفواحش كالزنا واللواط، وهو تعبير يعكس قدرة الشاعر العربي على تصوير واقعه وقضايا المجتمع ومشكلاته.

فيما يعبّر شعراء آخرون عن نقدهم لكثير من تلك المفاسد بأسلوب التهكم والسخرية والازدراء لها ومن يرتكبونها، كقول ابن قزل يهجو رجلاً أعور وقد فُعِل به جريمة اللواط: من المديد

وقليل العقل والأدب عُجْبُه في غـايـة العَجَـبِ
أعوَرٌ في صُرمهِ شَبَقٌ علةٌ في الرأسِ والذَّنَبِ(٤)

ويقول أبو الحسين الجزار في التهكم بجريمة الزنا ومرتكبيها، ويهجو أحدهم بأسلوبٍ غير مباشر؛ إذ ينفي عن نفسه بعض الأخلاق الفاسدة التي اتصف بها المهجو: من الخفيف

(١) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم المعروف بابن البيع ت ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٠م، الحديث رقم٨٠٤٩، ٣٩٥/٤.

(٢) المصدر السابق، الحديث رقم٨٠٥٣، ٣٩٦/٤.

(٣) ديوان ابن الوردي، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري ت٧٤٩هـ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ١٧٦/١٨، والشاعر هو أبو الحسن سيف الدين علي بن عمر بن قزل، المعروف بسيف الدين المشِدّ ولد بمصر ونشأ بدمشق وتوفي فيها سنة ٦٥٦هـ شاعر مجيد وله ديوان شعر مطبوع، ينظر: ترجمته في فوات الوفيات والذيل عليها،٥١/٣.

ليتَ شعري ماذا تقول إذا ما رُمتَ شـــتمي قل لي بأي طريقِ
علم اللّه ما مضـيتُ رَسـولا قطُّ من عنـد ابنتي لعشـــيق
لا ولا بـتُّ في مكـان طُفيلي يـا كغيري في طـاعـةٍ وفسُـــوقِ
لا ولا جئتُ بالرجالِ إلى بي تي وكاسَرتُ عنهُمُ في السُّوقِ(١)

أما البوصيري فيهجو بعض عمّال الدولة وموظفيها الذين استغلوا مناصبهم فأفسدوا وخانوا أماناتهم، ويتهمهم بارتكاب المحرمات قائلاً: من الوافر

وَكَيفَ يُلاَمُ فُسَّاقُ النَّصارَى إذَا خانَتْ عُدُولُ المسْـــلِمينا
وَلَوْلا ذَاكَ مَا لَبِسُـــوا حَرِيراً ولا شَـــرِبُوا خُمُورَ الأنْـدَرِينـا
ولا رَبُّوا مِنَ الْمُرْدانِ قَوْمـاً كَأَغْصـــانٍ يَقُمْنَ وَيَنْحَنِينا(٢)

ويقول ابن نباتة: من الوافر

أقولُ لمعشـرٍ جلدوا ولاطوا وبـاتوا عـاكفين على الملاحِ
لأنتم خيرُ من ركبَ المطايا وأنـدَى العـالمينَ بطونَ راحِ(٣)

يسخر الشاعر من قوم ارتكبوا جريمة اللواط، فجلدوا وما انتهوا عنها، واستمروا عاكفين على ارتكاب تلك الجريمة، ويمعن في السخرية منهم في البيت الثاني فيهجوهم بما يشبه المدح، متناصاً مع بيت من قصيدة مدح فيها الشاعر جرير الخليفة عبدالملك بن مروان وهو قوله: من الوافر

ألستم خيرُ من ركبَ المطايا وأنـدَى العـالمينَ بطونَ راحِ(٤)

فقد نقل الشاعر البيت من سياق المديح إلى سياق الذّم والسخرية؛ إذ يورّي بقوله(خير مَن ركب المطايا) أي: من ركب الخيل، وفيه كناية عن الشجاعة، وهذا معنى قريب في نص ابن نباتة ولكنه غير مراد، وإنما أراد معنى بعيد هو ارتكابهم جريمة اللواط، وإنفاقهم في سبيلها.

ويسخر الشاب الظريف ممن يتعاطى الحشيشة ولا خير له منها إلا المرض والهوان، راسماً لها صوراً لونية مختلفة، تبرز قوة تأثيرها على صاحبها فيقول:من البسيط

مَا لِلْحَشيشَةِ فَضْلٌ عِنْدَ آكِلِهَا لَكِنَّهُ غَيْرُ مَصْـــرُوفٍ إلى رَشَـــدِهْ

(١) فوات الوفيات والذيل عليها، ٢٩١/٤.
(٢) ديوان البوصيري، ص٢٦٦.
(٣) ديوان ابن نباتة المصري، للشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري الفاروقي ت ٧٦٨هـ، الناشر محمد القلقيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، ص١٢٠، والشاعر هو جمال الدين محمد بن محمد بن عبدالرحيم بن نباتة المصري ولد بمصر وتوفي فيها سنة ٧٦٨هـ شاعر مشهور وله ديوان كبير، ينظر: ترجمته في مقدمة الديوان، ص ٦.
(٤) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ط٣، دت، ٨٩/١.

صَفْرَاءُ فِي وَجْهِهِ خَضْرَاءُ فِي فَمِهِ حَمْرَاءُ فِي عَيْنِهِ سَـوْدَاءُ فِي كَبِدِهْ(١)

ويقول: من البسيط

هَـذَا الفَقِيرُ الَّـذي تَراهُ كَـالفَرْخِ مُلْقىً بِغَيْرِ رِيشِ

قَدْ قَتَلَتْهُ الحَشِيشُ سُكْراً وَالقَتْلُ مِنْ عَادةِ الحَشِـيشِ(٢)

يتعجب الشاعر من ذلك الفقير الذي قتلت الحشيش جسده، فأصبح كالمقتول ملقى في الأرض، وسلبت منه ماله، فأصبح فقيراً معدماً، لا يملك القدرة على الحصول على شيء منها، مشبّهاً حاله تلك بحال الفرخ الذي ذبح عنقه ونتف ريشه.

فيما تقدّم من النصوص الشِّعرية يصور الشِّعراء بعض المفاسد الأخلاقية، والجرائم الاجتماعية التي شاعت في مجتمعاتهم، بصورة تؤكد احتقار المجتمع وسخريته من مرتكبي تلك الجرائم، كما توضح شيوع بعض تلك الظواهر والأخلاقيات السلبية لاسيما جريمة اللّواط والافتتان بالغلمان المرد، والخمر والحشيشة في عهد المماليك لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة، وقد عكست تلك النصوص معايشة الشاعر العربي بصورة واقعية لقضايا مجتمعه، واهتمامه بمعالجتها.

الخاتمة:

يمكن الإشارة في نهاية هذا البحث إلى أهم النتائج وهي:

١-إنّ الشِّعراء في العهد المملوكي الأول قد عبّروا بكل واقعية عن كثير من الأخلاقيات السيئة واللاإنسانية في مجتمعاتهم، مثل آفة البخل والحرص، وبعض مظاهر اللهو والغناء والعبث بالجواري والغلمان، وبعض الجرائم كاللّواط والافتتان بالغلمان المرد، والخمر والحشيشة التي تفشت في عهد المماليك لأسباب سياسية واجتماعية مختلفة.

٢- انقسم الشعراء في تصوير تلك الأخلاقيات السلبية على فريقين: الأول يتبنى تلك الأخلاقيات ويدعو إليها، فيما كان الآخر ينقد ويحذّر مجتمعه منها، ويهجو ويسخر من مرتكبيها، بصورة تؤكد حرص هذا الفريق من الشِّعراء على تربية المجتمع وسعيه إلى تهذيب أخلاقياته والحفاظ على قيمه السامية.

٣- وقد عكست الدراسة معايشة الشاعر العربي لقضايا مجتمعه بصورة واقعية، واهتمامه بمعالجتها، وحرصه على إصلاح أفراد مجتمعه، والارتقاء بأخلاقه الإنسانية.

٤-كما عكست الدراسة المقدرة الأدبية للشاعر العربي في تصوير قيم مجتمعه وأخلاقياته بكل تفاصيلها وأشكالها السلبية، بلغة فنيّة رائعة، ومعانٍ إنسانية عميقة، وهو ما يؤكد قيام الشِّعر العربي بوظيفته الأخلاقية والإنسانية التي تهدف إلى تهذيب أخلاق الإنسان العربي وتحسين أدائه في الحياة.

---

(١) ديوان الشاب الظريف، ص١٠١.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٣-١٣٤.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، دط، دت.

٢. آفاق الشِّعر العربي في العصر المملوكي، د ياسين الأيوبي، جرّوس برس، ط١، ١٩٩٥م.

٣. الإيجابية والسلبية في الشِّعر العربي بين الجاهلية والإسلام، علي شواخ إسحاق، دكتوراه، جامعة القديس يوسف-بيروت، ١٩٨١م.

٤. بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م.

٥. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر ت٥٧١هـ، تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٦. خزانة الأدب وغاية الأرب، الشيخ تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي ت٨٣٧هـ، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٧. ديوان البهاء زهير، شرح وتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ومحمد طاهر الحبلاوي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د ت.

٨. ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيّد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٧٣م.

٩. ديوان التحريض على حفظ أوزان القريض تصنيف أبي الحسين الجزار ت٦٧٩هـ، تحقيق محمود عبدالرحيم صالح وعبدالحليم حسين الهروط، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م٥، ع٣، تموز٢٠٠٩م.

١٠. ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر،ط٣، دت.

١١. ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرحه علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٢. ديوان الشاب الظريف تحقيق شاكر هادي شَكر، مكتبة النهضة العربية،وعالم الكتب،ط١، ١٩٨٥م.

١٣. ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري، تحقيق عمر باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د ط، د ت.

١٤. ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، د ط، د ت.

١٥. ديوان مجير الدين ابن تميم ت٦٨٤هـ، نظرات ومستدرك، عباس هاني الجراخ، منشورات دار الفرات للطباعة في بابل، ط١، ٢٠٠٩م.

١٦. ديوان ابن نباتة المصري للشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري الفاروقي ت ٧٦٨هـ، الناشر محمد القلقيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، د ت.

١٧. ديوان ابن الوردي، تحقيق عبدالحميد هنداوى، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١٨. السخرية في الشِّعر في العصر المملوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ)، نيفن محمد، ماجستير جامعة الخليل، ٢٠٠٩م.

١٩. سراج الدين الوراق حياته وشعره جمع ودراسة، ميسر حميد سعيد، ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م.

٢٠. السلوك لمعرفة دول الملوك أحمد بن علي العبيدي، تقي الدين المقريزي ت ٨٤٥هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢١. الشاعر نصير الدين الحمامي: حياته وما بقي من شعره، رائد عبدالرحيم، مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية)مجلد ٢٧، ع٥، ٢٠١٣م.

٢٢. شعر بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي دراسة موضوعيّة وفنيّة، أسماء عبداللطيف عبدالفتاح حمد، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية فلسطين، ٢٠١٢م.
٢٣. شعر صدر الدين ابن الوكيل ت٧١٦هـ، جمع وتحقيق عمر علي عيسى دودين، ماجستير، جامعة الخليل، ٢٠١٢م.
٢٤. شعر الهجاء في العصر المملوكي (دراسة نقدية)، تغريد عباس السقا، ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزه، ٢٠١٢م.
٢٥. فوات الوفيات والذيل عليها والذيل عليها محمد بن شاكر ت٧٦٤هـ، تحقيق د إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، ١٩٧٣-١٩٧٤م.
٢٦. كتاب الغيث المسجم في شرح لامية العجم، الشيخ صلاح الدين الصفدي، المطبعة الأزهرية المصرية، ط١، ١٣٠٥هـ.
٢٧. كتاب الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ت٧٦٤هـ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٨. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن صابر الفاروقي الحنفي التهانوي ت بعد ١١٥٨هـ، تحقيق علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٢٩. لسان العرب، ابن منظور ت٧١١هـ، تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف، دار المعارف القاهرة.
٣٠. لوعة الشاكي ودمعة الباكي، صلاح الدين الصفدي ت٧٦٤هـ، ضبط وشرح الشيخ محمد أبوالفضل محمد هارون، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٩٢٢م.
٣١. المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن دانيال الموصليّ الكحّال، تغريد وضاح مصطفى كوني، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية-نابلس، ٢٠١٣م.
٣٢. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٢م.
٣٣. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري ت٧٤٩هـ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
٣٤. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم المعروف بابن البيع ت ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٣٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة أبو المحاسن، جمال الدين ت٨٧٤هـ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، دط، دت.